

فضائل أم المؤمنين خديجة - رضي الله عنها -

عناصر الخطبة

تقديم

فضائلها

لوحة الفراق

التفصيل

تقديم

حديثنا عن الأم المثالية والزوجة المثالية والمرأة المثالية... حديثنا عن الصديقة الكبرى حبيبة رسول الله ﷺ الأولى التي رزق النبي ﷺ حبها أول بيت شع فيه نور الإسلام وأشرفت فيه شمسه واستخرجت فيه شهادات الوفاة لأصنام مكة ولسائر الأوثان إنها امرأة من أهل الجنة إنها المرأة الكاملة أمنا خديجة - رضي الله عنها -.

هي أم المؤمنين خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي تجتمع مع النبي ﷺ في قصي وهي من أقرب نسائه إليه في النسب ولم يتزوج من ذرية قصي غيرها إلا أم حبيبة، تزوجها ﷺ بمكة وهو ابن خمسة وعشرين سنة وقد بقيت - رضي الله عنها - مع النبي ﷺ إلى أن أكرمه الله برسالته، وكانت أول من آمن به من النساء، وصدقته ونصرته فكانت له وزير صدق وهي سيدة نساء العالمين في زمانها، وهي ممن كمل من النساء فقد كانت عاقلة جليلة دينة مصونة كريمة من أهل الجنة، وكان ﷺ يثني عليها ويفضلها على سائر أمهات المؤمنين ويبالغ في تعظيمها، ولم يتزوج النبي ﷺ امرأة قبلها، وكل أولاده منها إلا إبراهيم ﷺ فإنه من سرية مارية - رضي الله عنها -، ولم يتزوج النبي ﷺ عليها امرأة قط، ولا تسرى إلى أن قضت نحبها فوجد لفقدتها فإنها كانت نعم القرين فلقد أنفقت عليه ﷺ من مالها واتجر فيه لها - رضي الله عنها -، وكانت وفاتها - رضي الله عنها - قبل الهجرة بثلاث سنين. (١)

(١) عقيدة أهل السنة في الصحابة لناصر بن علي (١/ ٤٠٧) وانظر: طبقات ابن سعد ١/ ١٣١، أسد الغابة ٥/ ٤٣٤، الإصابة ٤/ ٢٧٣-٢٧٦. وهذا ذكر مجمل لزوجات النبي ﷺ كما في البداية والنهاية (٥/ ٣٢١) قال ابن كثير: عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ: قَالَ: فَمَاتَتْ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ قَبْلَ أَنْ يَهَاجِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِثَلَاثِ سِنِينَ لَمْ يَتَزَوَّجْ عَلَيْهَا امْرَأَةً حَتَّى مَاتَتْ، فَتَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَهَا سَوْدَةَ بِنْتَ رَمْعَةَ، ثُمَّ تَزَوَّجَ بَعْدَهَا عَائِشَةَ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ لَمْ يَتَزَوَّجْ بِكُرًا غَيْرَهَا وَلَمْ يُصَبِّ مِنْهَا وَلَدًا حَتَّى مَاتَتْ، ثُمَّ تَزَوَّجَ بَعْدَهَا حَفْصَةَ بِنْتُ عَمْرٍو، ثُمَّ تَزَوَّجَ بَعْدَهَا زَيْنَبُ بِنْتُ خُزَيْمَةَ الْهَلَالِيَّةِ أُمُّ الْمَسَاكِينِ، ثُمَّ تَزَوَّجَ بَعْدَهَا أُمُّ حَبِيبَةَ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ، ثُمَّ

فضائلها

١- هي أول من آمن بالنبي ﷺ وأزرة وثبته في محنته

عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التَّعبُد - اللَّيالي ذوات العَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: ((مَا أَنَا بِقَارِئٍ))، قَالَ: "فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّلَاثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ} [العلق: ٢]" فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجِفُ فُؤَادَهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ حُوَيْلِدٍ - رضي الله عنها -، فَقَالَ: ((زَمَلُونِي زَمَلُونِي)) فَزَمَلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِحَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبْرَ: ((لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي)) فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْرِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلَ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلَ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، فَأَنْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ وَكَانَ امْرَأً تَنْصَرُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدِ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبْرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَدْعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((أَوْ مُخْرِجِي هُمْ))، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عَوْدِي، وَإِنْ يُدْرِكُنِي يَوْمَكَ أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوفِّيَ، وَفَتَرَ الْوَحْيَ (٢).

تزوج بعدها أم سلمة هند بنت أبي أمية، ثم تزوج بعدها زينب بنت جحش، ثم تزوج بعدها جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، قال ثم تزوج بعدها صفية بنت حيي بن أخطب، ثم تزوج بعدها ميمونة بنت الحارث الهلالية.

(٢) (الصالحة) الصادقة وهي التي يجري في اليقظة ما يوافقها. (فلق الصبح) ضياؤه ونوره ويقال هذا في الشيء الواضح البين. (الخلاء) الانفراد. (بغار حراء) الغار هو القب في الجبل وحراء اسم لجبل معروف في مكة. (يتزع) يرجع. (ما أنا بقارئ) لا أعرف القراءة ولا أحسنها. (فغطني) ضمني وعصرني حتى حبس نفسي ومثله غطني. (الجهد) غاية وسعي. (أرسلني) أطلقني. (علق) جمع علقه وهي المني بعد أن يتحول إلى دم غليظ متجمد والآيات المذكورة أول ما نزل من القرآن الكريم وهي أوائل سورة العلق. (يرجف فؤاده) يخفق قلبه ويتحرك بشدة. (زملوني) لفوني وغطوني. (الروع) الفزع. (ما يخريك) لا يذكرك ولا يضيحك. (لتصل الرحم) تكرم القرابة وتواسيهم. (تحمل الكل) تقو بشأن من لا يستقل بأمره ليطم غيره وتتوسع بمن فيه ثقل وغلاظة. (تكسب المعدوم) تتبرع بالمال لمن عدهم وتعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك. (تقري الضيف) تهيء له القرى وهو ما يقدم للضيف من طعام وشراب.

فهذا الحديث تضمن ذكر منقبة ظاهرة لأم المؤمنين خديجة - رضي الله عنها - وهي أنها كانت تقوي قلب النبي ﷺ في بداية نزول الوحي عليه وطمأنته عليه الصلاة والسلام مما كان يخشاه على نفسه وهونت عليه الأمر وأنه لا خوف عليه ولا حزن وأقسمت للنبي ﷺ على أن الله لا يخزيه ولا يخذله واستدلت على ما أقسمت عليه بما فيه من صفاته الطيبة من أصول مكارم الأخلاق التي هي إحسانه إلى الأقارب والأجانب إما بالبدن، وإما بالمال وبينت له أن من وجدت فيه هذه الخصال الحميدة لن يخزيه الله أبداً. (٣)

وَعَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِيَّاسِ بْنِ عَفِيفِ الْكِنْدِيِّ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: كُنْتُ امْرَأً تاجِرًا، فَقَدِمْتُ الْحَجَّ، فَاتَيْتُ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لِابْتِاعٍ مِنْهُ بَعْضَ التَّجَارَةِ، وَكَانَ امْرَأً تاجِرًا، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَعِنْدَهُ بِمَنَى، إِذْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ خِباءٍ قَرِيبٍ مِنْهُ، فَنَظَرَ إِلَى الشَّمْسِ فَلَمَّا رَأَاهَا مَالَتْ - يَعْنِي قَامَ يُصَلِّي - قَالَ: ثُمَّ خَرَجَتِ امْرَأَةٌ مِنْ ذَلِكَ الْخِباءِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ، فَقَامَتْ حَلْفَهُ تُصَلِّي، ثُمَّ خَرَجَ غُلَامٌ حِينَ رَأَاهُ الْحُلْمَ مِنْ ذَلِكَ الْخِباءِ، فَقَامَ مَعَهُ يُصَلِّي. قَالَ: فَقُلْتُ لِلْعَبَّاسِ: مَنْ هَذَا يَا عَبَّاسُ؟ قَالَ: هَذَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ابْنُ أُخِي، قَالَ: فَقُلْتُ: مَنْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ؟ قَالَ: هَذِهِ امْرَأَتُهُ خَدِيجَةُ ابْنَةُ خُوَيْلِدٍ. قَالَ: قُلْتُ: مَنْ هَذَا الْفَتَى؟ قَالَ: هَذَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ابْنُ عَمِّهِ. قَالَ: فَقُلْتُ: فَمَا هَذَا الَّذِي يَصْنَعُ؟ قَالَ: ((يُصَلِّي، وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ))، وَلَمْ يَتَّبِعْهُ عَلَى أَمْرِهِ إِلَّا امْرَأَتُهُ، وَابْنُ عَمِّهِ هَذَا الْفَتَى، وَهُوَ يَزْعُمُ ((أَنَّهُ سَيَفْتَحُ عَلَيْهِ كُنُوزَ كِسْرَى، وَيَقْصِرُ)) قَالَ: فَكَانَ عَفِيفٌ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ الْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسِ يَقُولُ: وَأَسْلَمَ بَعْدَ ذَلِكَ، فَحَسَنَ إِسْلَامُهُ لَوْ كَانَ اللَّهُ رَزَقَنِي الْإِسْلَامَ يَوْمَئِذٍ، فَأَكُونُ ثَالِثًا مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ. (٤)

(نواب الحق) النوايب جمع نائبة وهي ما ينزل بالإنسان من المهات وأضيفت إلى الحق لأنها تكون في الحق والباطل. (تنصر) ترك عبادة الأوثان واعتنق النصرانية. (الناموس) هو صاحب السر والمراد جبريل عليه السلام سمي بذلك لاختصاصه بالوحي. (فيها) في حين ظهور نبوتك. (جذع) شاب والجدع في الأصل الصغير من البهائم ثم استعير للشباب من الإنسان. (يومك) يوم إخراجك أو يوم ظهور نبوتك وانتشار دينك. (مؤزرا) قويا من الأزر وهو القوة. (يشب) يلبث. (فتر الوحي) تأخر عن النزول مدة من الزمن]

(٣) عقيدة أهل السنة في الصحابة لناصر بن علي (١/ ٤٠٩).

(٤) أخرجه أحمد (١٧٨٧) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

وأخرجه البخاري في الكبير (٧/ ٧٤ - ٧٥) والطبراني في الكبير (٢٢/ ٤٥٢ - ٤٥٣ رقم ١١٠٣).

وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٢٢) وعزاه لأحمد وأبي يعلى والطبراني وقال: "ورجال أحمد ثقات". وأخرجه الحاكم (٣/ ١٨٣) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

هذا الحديث اشتمل على منقبة عظيمة لأم المؤمنين خديجة - رضي الله عنها - وهي أنها كانت من السابقين الأولين إلى الإسلام.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: " وَمِمَّا اخْتَصَّتْ بِهِ سَبْقُهَا نِسَاءَ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَى الْإِبْرَائِيمِ فَسَنَّتْ ذَلِكَ لِكُلِّ مَنْ آمَنَتْ بَعْدَهَا فَيَكُونُ لَهَا مِثْلُ أَجْرِهِنَّ لِمَا تَبَّتْ أَنَّ مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً وَقَدْ شَارَكَهَا فِي ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الرَّجَالِ وَلَا يَعْرِفُ قَدْرَ مَا لِكُلِّ مِنْهُمَا مِنَ الثَّوَابِ بِسَبَبِ ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ".^(٥)

٢- هي خير نساء عالمها

عن علي رضي الله عنه: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: ((خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ حُوَيْلِدٍ)) قَالَ: أَبُو كُرَيْبٍ، وَأَشَارَ وَكَيْعٌ إِلَى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.^(٦)

قال النووي رحمه الله: أَرَادَ وَكَيْعٌ بِهَذِهِ الْإِشَارَةِ تَفْسِيرَ الضَّمِيرِ فِي نِسَائِهَا وَأَنَّ الْمُرَادَ بِهِ جَمِيعُ نِسَاءِ الْأَرْضِ أَيُّ كُلِّ مَنْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْأَظْهَرُ أَنَّ مَعْنَاهُ أَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا خَيْرُ نِسَاءِ الْأَرْضِ فِي عَصْرِهَا وَأَمَّا التَّفْضِيلُ بَيْنَهُمَا فَمَسْكُوتٌ عَنْهُ.^(٧)

وقال الحافظ ابن حجر: وَالَّذِي يَظْهَرُ لِي أَنَّ قَوْلَهُ خَيْرُ نِسَائِهَا خَيْرٌ مُقَدَّمٌ وَالضَّمِيرُ لِمَرْيَمَ فَكَانَتْهَ قَالَ مَرْيَمُ خَيْرُ نِسَائِهَا أَيُّ نِسَاءِ زَمَانِهَا وَكَذَا فِي خَدِيجَةَ وَقَدْ جَزَمَ كَثِيرٌ مِنَ الشُّرَاحِ أَنَّ الْمُرَادَ نِسَاءَ زَمَانِهَا لِمَا تَقَدَّمَ فِي أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ فِي قِصَّةِ مُوسَى وَذِكْرِ آسِيَّةَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى رَفَعَهُ كَمُلَ مِنَ الرَّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ وَآسِيَّةُ فَقَدْ أُثْبِتَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الْكَمَالَ لِآسِيَّةَ كَمَا أُثْبِتَهُ لِمَرْيَمَ فَامْتَنَعَ حَمَلُ الْخَيْرِيَّةِ فِي حَدِيثِ الْبَابِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَجَاءَ مَا يُفَسِّرُ الْمُرَادَ صَرِيحًا فَرَوَى الْبَرْزَالِيُّ وَالطَّبْرَانِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ رَفَعَهُ لَقَدْ فُضِّلَتْ خَدِيجَةُ عَلَى نِسَاءِ أُمَّتِي كَمَا فُضِّلَتْ مَرْيَمُ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ وَهُوَ مِنْ حَدِيثِ حَسَنِ الْإِسْنَادِ. . وَقَدْ

^(٥) فتح الباري ٧/١٣٧.

^(٦) صحيح مسلم (٤/١٨٨٦) - ٦٩ - (٢٤٣٠)

^(٧) شرح النووي على مسلم (١٥/١٩٨).

اُخْرَجَ النَّسَائِيُّ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ وَأَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ مِنْ حَدِيثِ بْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا أَفْضَلَ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ خَدِيجَةُ وَفَاطِمَةُ وَمَرْيَمُ وَأَسِيَّةُ وَهَذَا نَصٌّ صَرِيحٌ لَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ^(٨).

٣- هي ممن كمل من النساء:

عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((كَمَلُ مِنَ الرَّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ عَيْرُ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ، وَأَسِيَّةَ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ))^(٩) ورواه الطبري لفظه: ولم يكمل من النساء إلا مريم، وأسيدة امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد^(١٠).

قال ابن كثير: وَرَوَى شُعْبَةَ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ عَنْ أَبِيهِ قُرَّةَ بْنِ إِيَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " كَمَلُ مِنَ الرَّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا ثَلَاثٌ، مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَأَسِيَّةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ. وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ " رَوَاهُ ابْنُ مَرْدُوَيْهِ فِي تَفْسِيرِهِ. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ إِلَى شُعْبَةَ وَبَعْدَهُ.

قالوا والقدر المشترك بين الثلاث نسوة، أسية ومريم وخديجة أن كلاً منهن كفلت نبياً مرسلًا وأحسنَت الصُّحْبَةَ فِي كِفَالَتِهَا وَصَدَّقَتْهُ فَاسِيَّةُ رَبَّتْ مُوسَى وَأَحْسَنَتْ إِلَيْهِ وَصَدَّقَتْهُ حِينَ بُعِثَ، وَمَرْيَمُ كَفَلَتْ وَلَدَهَا أُمَّ كَفَالَةٍ وَأَعْظَمَهَا وَصَدَّقَتْهُ حِينَ أُرْسِلَ.

وَخَدِيجَةُ رَغِبَتْ فِي تَزْوِيجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِهَا وَبَدَلَتْ فِي ذَلِكَ أَمْوَالَهَا كَمَا تَقَدَّمَ وَصَدَّقَتْهُ حِينَ نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(١١).

فهذا الحديث تضمن منقبة ظاهرة لخديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حيث إن "لفظة الكمال تطلق على تمام الشيء وتناهيه في بابه والمراد هنا التناهي في جميع الفضائل وخصال البر والتقوى"^(١٢).

(٨) فتح الباري لابن حجر (٧/ ١٣٥).

(٩) البخاري ح (٣٤١١)، وصحيح مسلم (٤/ ١٨٨٦) (٢٤٣١)

(١٠) جامع البيان ت شاكر (٦/ ٣٩٨).

(١١) البداية والنهاية ط إحياء التراث (٣/ ١٥٩).

٤- سلام من الله وبشارة ببيت في الجنة

عَنْ أَبِي زُرْعَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ، قَالَ: أَتَى جَبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْكَ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ، فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنِّي، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ، لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ " قَالَ أَبُو بَكْرٍ فِي رِوَايَتِهِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَلَمْ يَقُلْ: سَمِعْتُ وَلَمْ يَقُلْ فِي الْحَدِيثِ: وَمَنِّي (١٣)

وعن عبد الله بن أبي أوفى، أَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَشَّرَ خَدِيجَةَ بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ؟ قَالَ: نَعَمْ، ((بَشَّرَهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لَا صَخَبَ، فِيهِ وَلَا نَصَبَ)) (١٤)

وَعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: ((بَشَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ)) (١٥)

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: جَاءَ جَبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَعِنْدَهُ خَدِيجَةُ قَالَ: ((إِنَّ اللَّهَ يُقْرَأُ خَدِيجَةَ السَّلَامَ)) فَقَالَتْ: ((إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ، وَعَلَى جَبْرِيلَ السَّلَامُ، وَعَلَيْكَ السَّلَامُ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ)) (١٦)

وهذا فيه منقبتين عظيمتين لأم المؤمنين - رضي الله عنها -

الأولى: إرسال الرب. جل وعلا. سلامه عليها مع جبريل "وهذه الخاصة لا تعرف لامرأة سواها"

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: زَادَ الطَّبْرَانِيُّ فِي الرَّوَايَةِ الْمَذْكُورَةِ فَقَالَتْ هُوَ السَّلَامُ وَمِنْهُ وَالسَّلَامُ وَعَلَى جَبْرِيلَ السَّلَامُ وَلِلنَّسَائِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ قَالَ قَالَ جَبْرِيلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ إِنَّ اللَّهَ يَقْرَأُ خَدِيجَةَ السَّلَامَ يَعْنِي فَأُخْرِهَا فَقَالَتْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ وَعَلَى جَبْرِيلَ السَّلَامُ وَعَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ زَادَ ابْنُ السُّنِّيِّ مِنْ وَجْهِ آخَرَ وَعَلَى مَنْ سَمِعَ السَّلَامَ إِلَّا الشَّيْطَانَ.

(١٢) شرح النووي ١٥/١٩٨.

(١٣) صحيح مسلم (٤/١٨٨٧) (٢٤٣٢)

(١٤) صحيح مسلم (٤/١٨٨٧) (٢٤٣٣)

(١٥) صحيح مسلم (٤/١٨٨٨) (٢٤٣٤)

(١٦) السنن الكبرى للنسائي (٧/٣٩٠) (٨٣٠١).

قَالَ الْعُلَمَاءُ: فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ دَلِيلٌ عَلَى وَفُورِ فَهْمِهَا لِأَمَّتِهَا لَمْ تَقُلْ وَعَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا وَقَعَ لِبَعْضِ الصَّحَابَةِ حَيْثُ كَانُوا يَقُولُونَ فِي التَّشْهُدِ السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ فَهَاهُمْ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ فَقُولُوا التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ فَعَرَفَتْ خَدِيجَةُ لِصِحَّةِ فَهْمِهَا أَنَّ اللَّهَ لَا يُرَدُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا يُرَدُّ عَلَى الْمَخْلُوقِينَ لِأَنَّ السَّلَامَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَهُوَ أَيْضًا دُعَاءٌ بِالسَّلَامَةِ وَكَلَاهَا لَا يَصْلُحُ أَنْ يُرَدَّ بِهِ عَلَى اللَّهِ فَكَأَنَّهَا قَالَتْ كَيْفَ أَقُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالسَّلَامُ اسْمُهُ وَمِنْهُ يُطَلَّبُ وَمِنْهُ يَحْتَصِلُ فَيَسْتَفَادُ مِنْهُ أَنَّهُ لَا يَلِيقُ بِاللَّهِ إِلَّا الثَّنَاءُ عَلَيْهِ فَجَعَلَتْ مَكَانَ رَدِّ السَّلَامِ عَلَيْهِ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ ثُمَّ غَايِرَتْ بَيْنَ مَا يَلِيقُ بِاللَّهِ وَمَا يَلِيقُ بغيرِهِ فَقَالَتْ وَعَلَى جَبْرِيلَ السَّلَامُ ثُمَّ قَالَتْ وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَيُسْتَفَادُ مِنْهُ رَدُّ السَّلَامِ عَلَى مَنْ أَرْسَلَ السَّلَامَ وَعَلَى مَنْ بَلَّغَهُ وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ جَبْرِيلَ كَانَ حَاضِرًا عِنْدَ جَوَابِهَا فَرَدَّتْ عَلَيْهِ وَعَلَى النَّبِيِّ ﷺ مَرَّتَيْنِ مَرَّةً بِالتَّخْصِيسِ وَمَرَّةً بِالتَّعْميمِ ثُمَّ أَخْرَجَتِ الشَّيْطَانُ مِمَّنْ سَمِعَ لِأَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ الدُّعَاءَ بِذَلِكَ قِيلَ إِنَّهَا بَلَّغَهَا جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ رَبِّهَا بِوِاسِطَةِ النَّبِيِّ ﷺ اخْتِرَامًا لِلنَّبِيِّ ﷺ. (١٧)

الثانية: قول جبريل عليه السلام للنبي ﷺ: "وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب" وهذا بشارة عظيمة؛

قال السهيلي: لِيَذْكَرِ النَّبِيُّ هَاهُنَا هَذَا اللَّفْظَ وَلِقَوْلِهِ بِنَيْتٍ وَلَمْ يَقُلْ بِقَصْرِ مَعْنَى لِأَنَّ بَصُورَةَ الْحَالِ وَذَلِكَ أَمَّتِهَا كَانَتْ رَبَّةَ بَيْتِ إِسْلَامٍ لَمْ يَكُنْ عَلَى الْأَرْضِ بَيْتٌ إِسْلَامٍ إِلَّا بَيْنَهَا حِينَ آمَنْتُ وَأَيْضًا فَإِنَّهَا أَوَّلُ مَنْ بَنَى بَيْتًا فِي الْإِسْلَامِ بِتَزْوِيجِهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَرَغْبَتِهَا فِيهِ وَجَزَاءُ الْفِعْلِ يُذْكَرُ بِلَفْظِ الْفِعْلِ وَإِنْ كَانَ أَشْرَفَ مِنْهُ لَهَا جَاءَ "مَنْ كَسَا مُسْلِمًا عَلَى عُرْيٍ كَسَاهُ اللَّهُ مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ وَمَنْ سَقَى مُسْلِمًا عَلَى ظَمًا سَقَاهُ اللَّهُ مِنَ الرَّحِيقِ" وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ "مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِدًا بَنَى اللَّهُ لَهُ مِثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ" لَمْ يَرِدْ مِثْلُهُ فِي كَوْنِهِ مَسْجِدًا، وَلَا فِي صِفَتِهِ وَلَكِنْ قَابِلُ الْبُنْيَانِ بِالْبُنْيَانِ أَيْ كَمَا بَنَى يُبْنَى لَهُ كَمَا قَابِلُ الْكِسْوَةِ بِالْكَسْوَةِ وَالسَّقْيَا بِالسَّقْيَا، فَهَاهُنَا وَقَعَتْ الْمِثْلَةُ لَا فِي ذَاتِ الْمُبْنِيِّ أَوْ الْمَكْسُورِ وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا، فَمِنْ هَاهُنَا افْتَضَتْ الْفَصَاحَةُ أَنْ يُعَبَّرَ لَهَا عَمَّا بُشِّرَتْ بِهِ بِلَفْظِ الْبَيْتِ وَإِنْ كَانَ فِيهِ مَا لَا عَيْنَ رَأَتْهُ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْهُ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ وَأَمَّا قَوْلُهُ لَا صَخْبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ فَإِنَّهُ أَيْضًا مِنْ بَابِ مَا كُنَّا بِسَبِيلِهِ لِأَنَّهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - دَعَاهَا إِلَى الْإِيْمَانِ فَأَجَابَتْهُ عَفْوًا، لَمْ تُخَوِّجْهُ إِلَى أَنْ يَصْحَبَ كَمَا يَصْحَبُ الْبَعْلُ إِذَا تَعَصَّتْ عَلَيْهِ حَلِيلَتُهُ وَلَا أَنْ يَنْصَبَ بَلْ أزالَتْ عَنْهُ كُلَّ نَصَبٍ وَأَنْتَهُ مِنْ كُلِّ

(١٧) فتح الباري ١٣٩/٧، وانظر شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للشيخ عبد الله محمد الغنيان ٣٦٩/٢-٣٧٠ وعقيدة أهل السنة في الصحابة لناصر بن علي (١/٤١٦)

وَخَشَّةٌ وَهَوْنَتْ عَلَيْهِ كُلُّ مَكْرُوهِهِ وَأَرَاخَتْهُ بِمَا لَهَا مِنْ كُلِّ كَدٍّ وَنَصَبٍ فَوَصَفَ مَنْزِلَهَا الَّذِي بُشِّرَتْ بِهِ بِالصَّفَةِ الْمُقَابِلَةِ لِفَعَالِهَا وَصُورَتِهِ. (١٨)

وقال ابن حجر: وَفِي ذِكْرِ الْبَيْتِ مَعْنَى آخِرٍ لِأَنَّ مَرْجِعَ أَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَيْهَا لِمَا ثَبَتَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ نَعَالِي {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ} قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ لَمَّا نَزَلَتْ دَعَا النَّبِيُّ ﷺ فَاطِمَةَ وَعَلِيًّا وَالْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ فَجَلَّلَهُمْ بِكِسَاءٍ فَقَالَ اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَعَيْزُهُ وَمَرْجِعُ أَهْلِ الْبَيْتِ هَؤُلَاءِ إِلَى خَدِيجَةَ لِأَنَّ الْحَسَيْنَيْنِ مِنْ فَاطِمَةَ وَفَاطِمَةُ بِبَيْتِهَا وَعَلِيٌّ نَشَأَ فِي بَيْتِ خَدِيجَةَ وَهُوَ صَغِيرٌ ثُمَّ تَزَوَّجَ بِبَيْتِهَا بَعْدَهَا فَظَهَرَ رُجُوعُ أَهْلِ الْبَيْتِ النَّبَوِيِّ إِلَى خَدِيجَةَ دُونَ غَيْرِهَا. (١٩)

قال ابن حجر: قَوْلُهُ مِنْ قَصَبٍ بِنَفْحِ الْقَافِ وَالْمُهْمَلَةِ بَعْدَهَا مُوَحَّدَةً قَالَ ابْنُ التَّيْنِ الْمُرَادُ بِهِ لَوْلُؤَةٌ مُجَوَّفَةٌ وَاسِعَةٌ كَالْقَصْرِ الْمُنِيفِ قُلْتُ عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ فِي الْأَوْسَطِ مِنْ طَرِيقِ أُخْرَى عَنْ بَنِي أَبِي أَوْفَى يَعْنِي قَصَبَ اللَّوْلُؤِ وَعِنْدَهُ فِي الْكَبِيرِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ بَيْتٌ مِنْ لَوْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ وَأَصْلُهُ فِي مُسْلِمٍ وَعِنْدَهُ فِي الْأَوْسَطِ مِنْ حَدِيثِ فَاطِمَةَ قَالَتْ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيْنَ أُمِّي خَدِيجَةُ قَالَ فِي بَيْتٍ مِنْ قَصَبٍ قُلْتُ أَمِنْ هَذَا الْقَصَبِ قَالَ لَا مِنْ الْقَصَبِ الْمَنْظُومِ بِالذَّرِّ وَاللَّوْلُؤِ وَالْيَاقُوتِ قَالَ السُّهَيْلِيُّ النُّكْتَةُ فِي قَوْلِهِ مِنْ قَصَبٍ وَلَمْ يَقُلْ مِنْ لَوْلُؤٍ أَنْ فِي لَفْظِ الْقَصَبِ مُنَاسَبَةٌ لِكَوْنِهَا أَحْرَزَتْ قَصَبَ السَّبْقِ بِمُبَادَرَتِهَا إِلَى الْإِيْمَانِ دُونَ غَيْرِهَا وَلِذَا وَقَعَتْ هَذِهِ الْمُنَاسَبَةُ فِي جَمِيعِ أَلْفَاظِ هَذَا الْحَدِيثِ انْتَهَى وَفِي الْقَصَبِ مُنَاسَبَةٌ أُخْرَى مِنْ جِهَةِ اسْتِوَاءِ أَكْثَرِ أَنْبِيَائِهِ وَكَذَا كَانَ لِخَدِيجَةَ مِنَ الْإِسْتِوَاءِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهَا إِذْ كَانَتْ حَرِيصَةً عَلَى رِضَاهُ بِكُلِّ مُمْكِنٍ وَلَمْ يَصْدُرْ مِنْهَا مَا يُغْضِبُهُ فَطُ كَمَا وَقَعَ لِغَيْرِهَا (٢٠).

وقال النووي: وَقَوْلُهُ أَوْلَا قَدْ أَتَتْكَ مَعْنَاهُ تَوَجَّهَتْ إِلَيْكَ وَقَوْلُهُ فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ أَيَّ وَصَلَتْكَ فَافْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ أَيَّ سَلَّمَ عَلَيْهَا وَهَذِهِ فَضَائِلُ ظَاهِرَةٌ لِخَدِيجَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - وَقَوْلُهُ بَيْتٍ مِنْ قَصَبٍ قَالَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ الْمُرَادُ بِهِ قَصَبُ اللَّوْلُؤِ الْمُجَوَّفِ كَالْقَصْرِ الْمُنِيفِ وَقِيلَ قَصَبٌ مِنْ ذَهَبٍ مَنْظُومٍ بِالْجَوْهَرِ قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ الْقَصَبُ مِنَ الْجَوْهَرِ مَا اسْتَطَالَ مِنْهُ فِي تَجْوِيفِ قَالُوا وَيُقَالُ لِكُلِّ مُجَوَّفٍ قَصَبٌ وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ مُفَسَّرًا بِبَيْتٍ مِنْ

(١٨) الروض الأنف ت السلامي (٢/ ٢٧٦).

(١٩) فتح الباري ١٣٨/٧.

(٢٠) فتح الباري (١٣٨/٧).

لَوْلَوْهُ مِحْيَاةٌ وَقَسْرُوهُ بِمُجَوَّفَةٍ قَالَ الْخَطَّابِيُّ وَغَيْرُهُ الْمَرَادُ بِالْبَيْتِ هُنَا الْقَصْرُ وَأَمَّا الصَّخْبُ فَبِفَتْحِ الصَّادِ وَالْحَاءِ وَهُوَ الصَّوْتُ الْمُخْتَلِطُ الْمُرْتَفِعُ وَالنَّصْبُ الْمَشَقَّةُ وَالتَّعَبُ (٢١)

٥- حب النبي ﷺ لها وكثرة ذكر النبي ﷺ لها

عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: ((مَا غَرْتُ عَلَى امْرَأَةٍ مَا غَرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ وَلَقَدْ هَلَكْتُ قَبْلَ أَنْ يَتَزَوَّجَنِي بِثَلَاثِ سِنِينَ، لِيَا كُنْتُ أَسْمَعُهُ يَذْكُرُهَا وَلَقَدْ أَمَرَهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُسِّرَهَا بَيْنَتِ مِنْ قَصَبٍ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ لِيَذْبُحَ الشَّاةَ، ثُمَّ يُهْدِيهَا إِلَى خَلَائِلِهَا))، وَعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: ((مَا غَرْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ عَلَى امْرَأَةٍ مِنْ نِسَائِهِ، مَا غَرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ لِكَثْرَةِ ذِكْرِهِ إِيَّاهَا وَمَا رَأَيْتُهَا قَطُّ)) (٢٢)

عَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-، قَالَتْ: مَا غَرْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ، مَا غَرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ، وَمَا رَأَيْتُهَا، وَلَكِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، وَرَبِّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يَقْطَعُهَا أَعْضَاءً، ثُمَّ يَبْعَثُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ، فَرَبِّمَا قُلْتُ لَهُ: كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إِلَّا خَدِيجَةُ، فَيَقُولُ ((إِنَّمَا كَانَتْ، وَكَانَتْ، وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ)) (٢٣)

قال ابن حجر: قوله ما غرْتُ على امرأة للنبي ﷺ فيه ثبوت الغيرة وأنها غير مُستَنَكِرٍ وُقوعها من فاضلات النساء فضلاً عمّن دونهنَّ وأنَّ عائشة كانت تعارُ من نساء النبي ﷺ لكن كانت تعارُ من خديجة أكثر وقد بينت سبب ذلك وأنه لِكثْرَةِ ذِكْرِ النَّبِيِّ ﷺ إِيَّاهَا وَأَصْلُ غَيْرَةِ الْمَرْأَةِ مِنْ تَخِيلِ مَحَبَّةِ غَيْرِهَا أَكْثَرَ مِنْهَا وَكثْرَةِ الذِّكْرِ تَدُلُّ عَلَى كَثْرَةِ الْمَحَبَّةِ وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ مُرَادُهَا بِالذِّكْرِ لَهَا مَدْحُهَا وَالثَّنَاءُ عَلَيْهَا.

قَوْلُهُ: وَأَمْرَهُ اللَّهُ أَنْ يُسِّرَهَا؛ مِنْ جُمْلَةِ أَسْبَابِ الْغَيْرَةِ لِأَنَّ اخْتِصَاصَ خَدِيجَةَ بِهَذِهِ الْبُشْرَى مُشْعِرٌ بِمَزِيدِ مَحَبَّةٍ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ فِيهَا (٢٤).

(٢١) شرح النووي على مسلم (١٥ / ٢٠٠).

(٢٢) صحيح مسلم (٤ / ١٨٨٩) (٢٤٣٥).

(٢٣) صحيح البخاري (٥ / ٣٨) ح (٣٨١٨).

(٢٤) فتح الباري لابن حجر (٧ / ١٣٦) ..

٦- حب النبي ﷺ لها هبة من الله تعالى

عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: مَا غَرَّتْ عَلَى نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ، إِلَّا عَلَى خَدِيجَةَ وَإِنِّي لَمْ أُدْرِكْهَا، قَالَتْ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَبَحَ الشَّاةَ، فَيَقُولُ: ((أُرْسِلُوا بِهَا إِلَى أَصْدِقَاءِ خَدِيجَةَ)) قَالَتْ: فَأَعْضَبْتُهُ يَوْمًا، فَقُلْتُ: خَدِيجَةَ فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ((إِنِّي قَدْ رَزَقْتُ حُبَّهَا))^(٢٥)

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: "قوله ﷺ: "رزقت حبها" فيه إشارة إلى أن حبها فضيلة حصلت" ^(٢٦)
قال القرطبي كان حبه ﷺ لها لما تقدم ذكره من الأسباب وهي كثيرة كل منها كان سببا في إيجاد المحبة ^(٢٧)

وهذا يدل على أن حب النبي ﷺ لخديجة رزق من الله تعالى وعلى أن حب الزوج لزوجته رزق من الله تعالى وعلى أن محبة المؤمنين للعبد من القبول الذي يوضع له في الأرض بسبب محبة الله تعالى له كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فَلَانَا فَاجِبُهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فَلَانَا فَاجِبُوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ" ^(٢٨)

٧- لم يتزوج النبي ﷺ عليها حتى ماتت

عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: ((لَمْ يَتَزَوَّجِ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى خَدِيجَةَ حَتَّى مَاتَتْ))^(٢٩)

قال الحافظ: " وَهَذَا بِمَا لَا اخْتِلَافَ فِيهِ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْأَخْبَارِ وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى عِظَمِ قَدْرِهَا عِنْدَهُ وَعَلَى مَزِيدِ فَضْلِهَا لِأَنَّهَا أَعْتَنَتْ عَنْ غَيْرِهَا وَاخْتَصَّتْ بِهِ بِقَدْرِ مَا اشْتَرَكَ فِيهِ غَيْرَهَا مَرَّتَيْنِ لِأَنَّهُ ﷺ عَاشَ بَعْدَ أَنْ تَزَوَّجَهَا ثَمَانِيَةً وَثَلَاثِينَ عَامًا انْفَرَدَتْ خَدِيجَةُ مِنْهَا بِخَمْسَةِ وَعِشْرِينَ عَامًا وَهِيَ نَحْوُ الثُّلُثَيْنِ مِنَ الْمَجْمُوعِ وَمَعَ

^(٢٥) صحيح مسلم (٤/ ١٨٨٨) (٢٤٣٥).

^(٢٦) شرح النووي (١٥/ ٢٠١).

^(٢٧) فتح الباري (١٧/ ١٣٧).

^(٢٨) صحيح البخاري (٩/ ١٤٢) ح (٧٤٨٥).

^(٢٩) صحيح مسلم (٤/ ١٨٨٩) (٢٤٣٦).

طُولِ الْمُدَّةِ فَصَانَ قَلْبَهَا فِيهَا مِنَ الْغَيْرَةِ وَمِنْ نَكِدِ الضَّرَائِرِ الَّذِي رُبَّمَا حَصَلَ لَهُ هُوَ مِنْهُ مَا يُشَوِّشُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ وَهِيَ فَضِيلَةٌ لَمْ يُشَارِكْهَا فِيهَا غَيْرُهَا". (٣٠)

٨- ارتياح النبي ﷺ للصوت الذي يذكره بخديجة - رضي الله عنها - لأنه يشبه صوتها وذلك لما وضع الله لها في قلبه من المحبة - رضي الله عنها - وأرضاها.

عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: اسْتَأْذَنْتُ هَالَةَ بِنْتُ حُوَيْلِدٍ أُخْتِ خَدِيجَةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ فَارْتَأَحَ لِذَلِكَ فَقَالَ: ((اللَّهُمَّ هَالَةَ بِنْتُ حُوَيْلِدٍ)) فَعَرْتُ فَقُلْتُ: وَمَا تَذَكَّرُ مِنْ عَجُوزٍ مِنْ عَجَائِزِ قُرَيْشٍ، حَمْرَاءِ الشُّدْقَيْنِ، هَلَكْتَ فِي الدَّهْرِ فَأَبْدَلَكَ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهَا (٣١)

قال النووي: وَفِي هَذَا كُتِبَ دَلِيلٌ لِحُسْنِ الْعَهْدِ وَحِفْظِ الْوُدِّ وَرِعَايَةِ حُرْمَةِ الصَّاحِبِ وَالْعَشِيرِ فِي حَيَاتِهِ وَوَفَاتِهِ وَإِكْرَامِ أَهْلِ ذَلِكَ الصَّاحِبِ قَوْلُهَا (عَجُوزٍ مِنْ عَجَائِزِ قُرَيْشٍ حَمْرَاءِ الشُّدْقَيْنِ) مَعْنَاهُ عَجُوزٌ كَبِيرَةٌ جِدًّا حَتَّى قَدْ سَقَطَتْ أَسْنَانُهَا مِنَ الْكِبَرِ وَلَمْ يَبْقَ لَشَدَقِهَا بِيَاضُ شَيْءٍ مِنَ الْأَسْنَانِ إِنَّمَا بَقِيَ فِيهِ حُمْرَةٌ لثَاتِهَا قَالَ الْقَاضِي قَالَ الْمِصْرِيُّ وَغَيْرُهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْغَيْرَةِ مُسَامِحٌ لِلنِّسَاءِ فِيهَا لَا عُقُوبَةَ عَلَيْهِنَّ فِيهَا لِأَنَّ جِبْلَانَ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ وَلِهَذَا لَمْ تُرْجَرْ عَائِشَةُ عَنْهَا (٣٢).

٩- حسبك من نساء العالمين خديجة - رضي الله عنها -

عن أنس أن النبي ﷺ قال: "حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون" (٣٣).

قَوْلُهُ (حَسْبُكَ) أَي يَكْفِيكَ (مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ) أَي الْوَأَصِلَةَ إِلَى مَرَاتِبِ الْكَامِلِينَ فِي الْإِقْتِدَاءِ بِهِنَّ وَذِكْرِ مَحَاسِنِهِنَّ وَمَنَاقِبِهِنَّ وَزُهْدِهِنَّ فِي الدُّنْيَا وَإِقْبَالِهِنَّ عَلَى الْعُقْبَى (٣٤)

(٣٠) فتح الباري ١٣٧/٧.

(٣١) صحيح مسلم (٤/١٨٨٩) - ٧٨ - (٢٤٣٧).

(٣٢) شرح النووي على مسلم (١٥/٢٠٢).

(٣٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٤٠٣)، ومن طريقه الترمذي (٣٨٧٨) وقال: حديث صحيح.

وقال الملا علي القاري: قَالَ الطَّبِيُّ: حَسْبُكَ: مُبْتَدَأٌ. وَمِنْ نِسَاءٍ مُتَعَلِّقٍ بِهِ، وَمَرِيْمٌ خَبْرُهُ. وَالْحِطَابُ إِمَّا عَامٌّ أَوْ لِأَنْسٍ أَيْ: كَأَنَّكَ مَعْرِفَتَكَ فَضْلَهُنَّ عَنْ مَعْرِفَةِ سَائِرِ النِّسَاءِ. اهـ.

قَالَ السُّيُوطِيُّ فِي النِّقَابَةِ: نَعْتَقِدُ أَنَّ أَفْضَلَ النِّسَاءِ مَرِيْمٌ وَفَاطِمَةٌ، وَأَفْضَلَ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ خَدِيْجَةٌ وَعَائِشَةُ، وَفِي التَّفْضِيلِ بَيْنَهُمَا أَقْوَالٌ. ثَالِثُهَا: التَّوَقُّفُ. أَقُولُ: التَّوَقُّفُ فِي حَقِّ الْكُلِّ أَوْلَى، إِذْ لَيْسَ فِي الْمُسْأَلَةِ دَلِيلٌ قَطْعِيٌّ وَالظَّنِّيَّاتُ مُتَعَارِضَةٌ غَيْرُ مُفِيدَةٍ لِلْعَقَائِدِ الْمُبْنِيَّةِ عَلَى الْيَقِيْنِيَّاتِ (٣٥).

قال ابن حجر: قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: جِهَاتُ الْفَضْلِ بَيْنَ خَدِيْجَةَ وَعَائِشَةَ مُتَقَارِبَةٌ وَكَأَنَّهُ رَأَى التَّوَقُّفَ وَقَالَ ابْنُ الْقِيَمِ إِنَّ أُرِيدَ بِالتَّفْضِيلِ كَثْرَةُ الثَّوَابِ عِنْدَ اللَّهِ فَذَلِكَ أَمْرٌ لَا يُطْلَعُ عَلَيْهِ فَإِنَّ عَمَلَ الْقُلُوبِ أَفْضَلُ مِنْ عَمَلِ الْجَوَارِحِ وَإِنْ أُرِيدَ كَثْرَةُ الْعِلْمِ فَعَائِشَةُ لَا مَحَالَةَ وَإِنْ أُرِيدَ شَرَفُ الْأَصْلِ فَفَاطِمَةٌ لَا مَحَالَةَ وَهِيَ فَضِيْلَةٌ لَا يُشَارِكُهَا فِيهَا غَيْرُ أَخَوَاتِهَا وَإِنْ أُرِيدَ شَرَفُ السِّيَادَةِ فَقَدْ ثَبَتَ النَّصُّ لِفَاطِمَةَ وَحَدَّهَا قُلْتُ امْتَارَتْ فَاطِمَةَ عَنْ أَخَوَاتِهَا بِأَنَّهَا مَنَّتْ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا تَقَدَّمَ وَأَمَّا مَا امْتَارَتْ بِهِ عَائِشَةُ مِنْ فَضْلِ الْعِلْمِ فَإِنَّ خَدِيْجَةَ مَا يُقَابَلُهُ وَهِيَ أُمَّهَا أَوْلَى مِنْ أَجَابَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَدَعَا إِلَيْهِ وَأَعَانَ عَلَى ثُبُوتِهِ بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ وَالتَّوَجُّهِ التَّامِّ فَلَهَا مِثْلُ أَجْرِ مَنْ جَاءَ بَعْدَهَا وَلَا يُقَدَّرُ قَدْرُ ذَلِكَ إِلَّا لِلَّهِ. (٣٦)

قال ابن القيم رحمه الله: واختلف في تفضيلها على عائشة - رضي الله عنها - على ثلاثة أقوال ثالثها الوقف وسألت شيخنا ابن تيمية رحمه الله فقال اختص كل واحدة منها بخاصة فخديجة كان تأثيرها في أول الإسلام وكانت تسلي رسول الله ﷺ وتبته وتسكنه وتبذل دونه ما لها فأدرت عزة الإسلام واحتملت الأذى في الله وفي رسوله وكانت نصرتها للرسول ﷺ في أعظم أوقات الحاجة فلها من النصرة والبذل ما ليس لغيرها وعائشة - رضي الله عنها - تأثيرها في آخر الإسلام فلها من التفقه في الدين وتبليغه إلى الأمة وانتفاع نبيها بما أدت إليهم من العلم ما ليس لغيرها هذا معنى كلامه (٣٧).

(٣٤) تحفة الأحوذى (١٠ / ٢٦٥).

(٣٥) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩ / ٣٩٩٤).

(٣٦) فتح الباري لابن حجر (٧ / ١٠٩)، وبدائع الفوائد (٣ / ١٦١).

(٣٧) جلاء الأفهام (ص: ٢٣٥).

وقال ابن كثير رحمه الله بعد ذكر: الحق أن كلاً منهما لها من الفضائل ما لو نظر الناظر فيه لبهرة وحيرة.

وَالْأَحْسَنُ التَّوَقُّفُ فِي ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ ظَهَرَ لَهُ دَلِيلٌ يَقْطَعُ بِهِ، أَوْ يَغْلِبُ عَلَى ظَنِّهِ فِي هَذَا الْبَابِ، فَذَلِكَ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ بِمَا عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ، وَمَنْ حَصَلَ لَهُ تَوَقُّفٌ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أَوْ فِي غَيْرِهَا، فَالطَّرِيقُ الْأَقْوَمُ وَالْمُسْلَكُ الْأَسْلَمُ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُ أَعْلَمُ..^(٣٨)

لوعة الفراق

أصعب وأشق شيء على النفس هو فراق الأحبة ومزايلة الحلائل، بعد العشرة الطيبة، والمخالطة والمودة والحب المحصن الصريح الخالص.

إن الروحين عندما ينزلان في جسد واحد، أو عندما ينقسم الروح بين جسدين يكون ذلك دليلاً على أن أحدهما متمم للآخر مكمل له، فلا سعادة تامة ولا هناء في غياب أحدهما عن شريكه.

من ثم كان الموت مصيبة لا تعدلها مصيبة، لأنه يصرم المودة، ويباعد تماماً المحبين في الدنيا، ويكون نزوله صعباً وأليماً عندما يأتي على أحد الزوجين المتوافقين اللذين يعيشان في رغد وهناء وليان من العيش... حتى إن الحيي منهما يكون كأنه هو الميت لشعوره بالانهيار، وكأنه يعيش في غير الزمان والمكان أو أنه لا يعيش في الزمان والمكان، وكأنه جسد بلا روح أو بدن بلا قلب.

بينما كانت المواجهة على أشدها بين الحق الواضح الأبلج وبين الباطل اللجوج، وبيننا استعرت حدة المدافعة وحمي الوطيس، وقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يستأصل شأفة الضلال والريب، ويظهر رسوله وصحبه، إذا بالسيدة الشريفة الفاضلة العجوز التي بلغت خمسا وستين سنة قد صارت خاترة القوى، واهية الجسم، متهالكة الأعضاء، وقد أخذ منها الجهد كل مأخذ، وفعل الزمن بها الأفاعيل، فلم يستطع جسمها المكدود مقاومة ولا دفعا لها لا يطاق، ولما لا يستطاع من الهموم والنوازل.

^(٣٨) بدائع الفوائد ٣/١٦١-١٦٢، وانظر: فتح الباري ٧/١٠٩، وجلاء الأفهام ص/١٢٤.

لم يمر على كسر حلقة الحصار وانهباره غير ستة أشهر حتى مات أبو طالب عم النبي ﷺ ، وكافله بعد جده عبد المطلب، . . .

وإبان رحيل عمّه إلى عالم الآخرة كانت الشريفة العفيفة المصون، زكية الذيل، طاهرة الأردن تعالج آلاما مبرحة غير مقدور عليها، وقد لاذت بالفراش تودع الحياة والأحياء، وتتأهب لساعة الرحيل، ومفارقة الحبيب الحليل الصابر المجاهد المحتسب المبعوث رحمة للعالمين، وهي مثقلة بالهموم إذ ترحل عنه وترك له بناتها الأربع في تلك الظروف الحرجة، والتي كان محتاجا إليها فيها أشد الاحتياج، لكن الله سبحانه وتعالى أرفق وأرحم به.

لم يطل رقاد خديجة في فراشها طويلا إذ سرعان ما غشيتها المنية، وحلت بساحتها، وزارها الحتم المجاب بعد ثلاثة أيام فقط، وكانت وفاتها بين يدي الزوج الحبيب الذي لم يكن رجلا كالرجال، ولا زوجا كالأزواج ولكنه كان رسول الله ﷺ ، وقد كانت له الرفيق الشفيق، والأنيس والملاذ.

وفاضت الروح إلى بارئها لهذه النفس المطمئنة راضية مرضية إلى رحاب الله ورضوانه.

وقد انتقلت إلى رحاب بارئها مرضيا عنها قبل الهجرة بثلاث سنين، ولقد خلت الدار بعدها من الأيس، وأحملت من الحبيب، فأصبحت عطلا وخلاء موحشة تنبو بالزوج المحب عن آفاق المكان ومحدود الزمان، وقد دفنها ﷺ بالحجون.

ولئن كانت صفحة خديجة قد انطوت إلا أن عقبها وذكرها وذكرها لا تزال باقية حية في روح النبي ﷺ وفي وجدانه، فلم تبرح مخيلته ولم تفارق خياله، ولم تزايل وجدانه طرفة عين أو برهة من زمان لقد كانت روحها معه تشاركه همومه، وتقاسمه أتراحه وأفراحه، وتشاطره أحزانه ومواجيده، وكأنها لم تبرح الدنيا للعالم الآخر، وكأنها لم يكن في الدنيا امرأة سواها-رضي الله عنها- وأرضاهها. (٣٩)

والحمد لله رب العالمين

(٣٩) نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم (ص: ٣١).